

## المرأة.. بين الواقع التاريخي والدور المفتوح



من دراسة للنصوص الإسلامية الواردة بشأن المرأة سواء أكانت مفاهيم أو تصوّرات أو أحكاماً وآداباً تجدها تتخذ مسارين:

1 - المسار الإستراتيجي العام الذي يحرص الإسلام الحنيف على البلوغ بالمرأة إلى مستوى الأقصى في المجتمع والحضارة وقد عبر القرآن الكريم عن هذا التوجه المُتبني في أكثر من نص صريح كقوله تعالى في تقرير حقيقة خلق الرجل والمرأة وأنهما جنس واحد متكامل في حقيقة تكوينهما : (يَا أَيُّهَا الَّذِي أَنْزَلَكُمْ إِلَيْهِ الْمَلَائِكَةِ مِنْ زَفْرَانٍ وَأَحْدَادَةِ مِنْهُهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِيحًا لَا كَثْرَيْرًا وَنِسَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسْأَءُ لِلْوَنَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) (النساء / 1).

وهذا النص القرآني الكريم إعلان صريح بخطأ كافة التصوّرات والأفكار والقواعد التي تعارف عليها المجتمع بشأن المرأة ورفضه للنظرية الضاللة الشائعة عن خلقها وتكوينها وموقعها في الحياة الإنسانية مما تصوّرته الجاهليات العربية واليونانية والرومانية والفارسية والمصرية قبل بزوغ نور الإسلام العظيم وتأسيساً على هذه النظرة الإلهية المباركة للمرأة تأتي تفصيلات الأحكام والفرائض والمفاهيم والرؤى حول المرأة كقوله تعالى: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا نُنْهِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَا نَهِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِمَا حَسَنُوا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (النحل / 97).

(وَعَادَ اللَّهُ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَاحَتِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَرْهَارُ  
خَالِدَاتِ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَبَّةٍ فِي جَنَاحَاتِ عَدُونِ وَرَضْوَانُ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ  
ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (التوبه / 72).

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلَّهِ جَاءَ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ  
وَاللَّهُ أَعْلَمُ حَكِيمٌ) (البقرة / 228). (لِلَّهِ جَاءَ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ  
وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ  
مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا) (النساء / 7).

2 - المسار المرحلي المحكم بالطرف الفعلي: وهذا المسار يشتمل على مجموعة من الأحكام والمعالجات لواقع المرأة ضمن المفاهيم والأعراف السائدة في عصر التشريع ريثما يحقق الإسلام الحنيف عملية التغيير الاجتماعي الشامل باتجاه أهدافه المتوجة على مستوى تغيير أفكار الناس وتصوّراتهم وأعرافهم الاجتماعية وغيرها كأحكام الإماء في الزواج والديمة وما إلى ذلك من أمور..

وهذا المسار في المرحلية ربما ينفعنا كثيراً في تصوّر كيفية تعامل الإسلام، ودعاته مع العادات والأعراف الموروثة التي تعيشها شعوب العالم المختلفة، هنا، وهناك، وكيف تجري عملية تكيف تلك العادات والأعراف، والمفاهيم السائدة مع القيم الإسلامية، في حركتها باتجاه صناعة الحضارة الإسلامية وفقاً لظروف أي بلد من البلدان، أو أُمّة من الأمم.

إنَّ الباحث لمكانة المرأة في المجتمع الإسلامي السليم ودورها في الحضارة الإسلامية الفاضلة لا بدَّ أن يدرك هذه المسارات فيميّز ما هو إستراتيجي من قيم الإسلام ومعالجاته وما هو مرحلٍ موقٍ محاكمٍ بالظروف التي يعيشها الإنسان في عصر التشريع كأوضاع موروثة من المجتمعات السابقة يسعى الإسلام لعلاجها أو تكييفها أو إلغائها رويداً، رويداً لأنَّ بعض القيم والعادات ليس بمقدور أية شريعة أو قانون أن يلغيها بشكل كامل بقرار سريع وإنما لا بدَّ من معالجات وحلول تمارس التدرج والمرحلية في خطتها وحركتها في الواقع، تماماً كمشكلة الرق الذي واجهته الرسالة الإسلامية كواقع قائم مفت على قرون طويلة فوضعت له المعالجات الآنية بما هو أمر قائم مع مباشرة العملية التغييرية المتدرجة الواسعة لإزالته من الواقع الاجتماعي في حياة الناس لتحقيق المفهوم المبدئي العام للإسلام القائم على أساس أنَّ الناس سواسية وأنَّ أكرمهم عند الله أتقاهم وأنَّ الحرّية حقٌّ طبيعيٌّ لكلَّ إنسان يعيش على ظهر هذا الكوكب.. (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى  
وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِيلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّمَا كُرِمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ  
أَتُقَاتِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات / 13).

وهكذا كانت قضية المرأة في الحضارة الإسلامية الفاضلة، تخطيط للمستقبل، وعلاج لمشاكل الحاضر الموروث وأعرافه..

إنَّ هذه النظرة الإسلامية الواقعية لشؤون المرأة وكيفية التعامل معها تعيننا أيضاً في اعتنام طريقة مناسبة لمعالجة وضع المرأة القائم في مجتمعنا اليوم، حسب ظروف تلك المجتمعات، فقد نصل في بعض المجتمعات إلى معالجات أنساب لأوضاع المرأة قبل المجتمعات أخرى، وذلك بسبب ظروف تلك المجتمعات وظروف نفس المرأة فيها من ناحية الثقافة والتأثير بالحياة القبلية القديمة المغلقة أو الحياة الغربية المنفتحة، ولذا فالتجربة الإسلامية قد تؤتي ثمارها في هذا المجتمع قبل ذلك المجتمع، وقد تحتاج التجربة الإسلامية المعاصرة إلى نماذج متعددة للتعامل مع هذه المسألة الهامة، حسب طبيعة المجتمعات وظروفها.